مفهوم رأس المال الدينى
مقاربة نظرية

خالد كاظم أبو دوح*

تمهيد

لقد تم استخدام مفهوم رأس المال Capital فى النظرية الاجتماعية استخدامًا رئيسيًا وتاريخيًا من قبل كارل ماركس لتقديم نظريته ونقده للاقتصاد السياسى، وحديثا أفرزت النظرية الاجتماعية مناقشات جديدة حول الأشكال المختلفة لرأس المال، فهناك رأس المال الاجتماعى، والذى يشير إلى تلك الموارد الكامنة فى العلاقات الاجتماعية وشبكات العلاقات، والتى تكون مفيدة للأفراد، وتسهل لهم الفعل عبر توليد الثقة وتأسيس الالتزامات والتوقعات، وخلق واحترام المعايير، وتشكيل الاتحادات والجمعيات(١).

وذهب بورديو Bourdieu إلى أن رأس المال الثقافى Cultural Capital، هو معرفة وإدراك الثقافة الجمالية المتميزة وذات المركز الاجتماعى، مثال الفنون الرفيعة، والثقافة الأدبية والقدرة اللغوية(٢). هذا بخلاف أشكال أخرى لرأس المال، مثال: رأس المال البشرى، ورأس المال الاقتصادى، ورأس المال الرمزى الذى استخدمه "بورديو" أيضا ليشير به إلى الحالة التى يتخذها أى شكل من أشكال رأس المال فى حالة الاعتراف به وإدراكه من قبل السياق الذى يتواجد فيه.

* مدرس علم الاجتماع ، جامعة سوهاج.

المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الحادى والخمسون ، العدد الثالث ، سبتمبر ٢٠١٤.

ومن خلال هذا الطرح يحاول الباحث أن يقدم مقاربة نظرية لمفهوم رأس المال الدينى Capital Religious كمفهوم وأداة تحليلية جديدة فى مجال النظرية الاجتماعية، والكشف عن مدى إمكانية تطوير هذا المفهوم نحو الاستفادة منه فى فهم الواقع الاجتماعى العربى.

أولا: رأس المال ...نحو مقاربة المفهوم

فى التعريف الأساسى لرأس المال يرى "نان لين" Nan Lin، أن رأس المال يتشكل من استثمار الموارد فى إطار السوق، طلبًا للحصول على عائدات محددة، وعلى هذا النحو يتشكل رأس المال من الموارد حينما يتم استثمار هذه الموارد أو تعبئتها فى اتجاه السعى للحصول على الربح، باعتباره هدفًا للفعل، فى إطار ذلك يعبر رأس المال عن الموارد وينمو من خلال عمليتين: فى إطار **العملية الأولى** يتم إنتاج الموارد وتحويلها كنوع من الاستثمار، وفى **العملية الثانية** يتم نقل الموارد المنتجة أو المحولة إلى ساحة السوق للحصول على الربح، وهو ما يعنى أن رأس المال فى جانب منه يعد حصيلة عملية الإنتاج والذى يعنى إنتاج أو إضافة قيمة جديدة إلى الموارد القائمة فعلا، وفى الجانب الآخر يعد رأس المال متغيرًا سببيًا فى عملية الإنتاج (حيث يتم تبادل الموارد من السوق لأجل توليد الربح) وقد اعتبرت هذه الجوانب عمليات لأن الاستثمار والتعبئة يتطلبان الوقت والجهد [٣].

وإذا كان رأس المال فى ذاته يعنى أن بنية تتشكل من القيم، وأن إعمال هذه أو استثمارها قد يكسب أو يخسر قيمًا، وأن هذه القيم تشكل تراكمًا وزيادة معدلات التراكم يعنى زيادة معدلات القوة بالنسبة لرأس المال، وأن قيمة رأس المال ذات طبيعة تبادلية بالأساس. على هذا النحو فإننا إذا تأملنا الدين فى أى مجتمع من المجتمعات فسوف نجده يشكل رأس مال، يستند إلى موارد ومصادر طبيعية يعاد إنتاجها، وتشبع الحاجة إلى الأمان بالنسبة للإنسان والمجتمع، بالإضافة إلى ذلك فقد يستثمر فاعلية الدين فى الحفاظ على الوضع القائم، أو تستثمر المعانى الدينية فى تحقيق أهداف اجتماعية أو اقتصادية للمجتمع، تساعده فى توليد قيم مضافة، فالدين الذى ناضل

من أجل الحصول على استقرار المجتمع قدم قيمة مضافة لأوضاع المجتمع، والدين الذى ساعد بطاقته المعنوية على انتصار المجتمع فى حرب، قدم قيمة معنوية ومادية مضافة إلى رصيد المجتمع، والدين الذى يشكل الضمير الفرد يجعل الإنسان المؤمن مكرسًا لعمله باعتباره رسالة، إنما يعمل على زيادة الإنتاج ويولد قيمًا مضافة، لذلك اتجهت المجتمعات التى امتلكت وعيًا بذلك إلى الدين باعتباره رأس مال يولد قيمًا مضافة تساعد على تأكيد قوة المجتمع وبأس مناعته [٤].

أما جيفريس Jeffries فيؤكد على القيم التى يضيفها الدين كرأسمال من خلال قوله بأن سبب وجود الدين داخل المجتمع البشرى يكمن فى إنه يحقق وحدة المجتمع، من خلال إنه يمد الأفراد بمجموعة من القيم والغايات المشتركة ما بين البشر[٥]. وكما يشير "على ليلة" إلى أنه من الممكن أن نستكشف البدايات الأولى للتعامل مع الدين كرأسمال فى التنظير الذى قدمه ماكس فيبر فيما يتعلق بالدور الذى يلعبه الدين فى نشأة النظام الرأسمالى[٦].

وإذا كان كل من ماكس فيبر وعلى ليلة قد أكد على أن الدين يمثل رأس مال هامًا على نطاق المجتمعات القومية، فإن الباحث يؤكد على أن الدين يمثل رأس مال مهمًا على مستوى الأفراد خاصة فى سياقات المجتمعات النامية التى تقف على هامش الحداثة، وهنا يتألف رأس المال الدينى Religious Capital، من درجة حيازة وسيطرة الفرد على الثقافة الدينية، وسيطرة الفرد على الثقافة الدينية يشير إلى درجة تعلم الفرد واكتسابه للمعرفة والمهارات والشعائر الخاصة بدين معين[٧].

ويعرف اناكون Ianna ccone رأس المال الدينى بأنه المهارات والخبرات الخاصة بعقيدة الفرد، ويتضمن أيضا المعرفة الدينية والإحساس بالألفة مع شعائر العقيدة[٨]. ويتم إنتاج ومراقبة رأس المال الدينى داخل نظام التعليم الدينى الرسمى أو غير الرسمى، وإن رأس المال الدينى هنا سلعة واسعة الانتشار يتم التحكم فيها عن طريق نماذج معقدة للإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك، ليس هذا فحسب بل إن رأس المال الدينى يتضمن عددًا من القيم والمهارات الفعالة، لأنه باستثماره الجيد يمكن أن

يحقق للفرد تقدما اجتماعيا، واقتصاديا، ويمكن التأكيد على ذلك من خلال النظر إلى العدد الهائل من القادة الدينين المنحدرين من طبقات عليا ودنيا[٩]. أو من خلال النظر إلى الدعاة الجدد الذين ينتشرون فى جميع الدول العربية.

ورأس المال الدينى مثل الأشكال الأخرى من رأس المال قابل للتحول أو قابل للخضوع للعملية التى أطلق عليها بورديو Bourdieu مصطلح تدوير رأس المال، فمثلا يمكن تحويل رأس المال الدينى إلى رأس مال اقتصادى، أو إلى أى شكل آخر من أشكال رأس المال، كما أنه يمكن توريث رأس المال الدينى ونقله من جيل لآخر[١٠].

وتعكس المناقشات النظرية حول مفهوم رأس المال الدينى خلافًا حول ما إذا كانت عملية تكوين وتراكم رأس المال الدينى لدى الأفراد ترجع إلى مدى إقبال الأفراد على تعلم الثقافة الدينية والالتزام بأداء الفرائض والشعائر المرتبطة بالدين، أم أن عملية تراكم وتكوين رأس المال الدينى ترتبط بالبنيات الاجتماعية ذاتها[١١].

وبناء على ما سبق، يمكن التأكيد على أن رأس المال الدينى يشير إلى درجة حيازة وسيطرة الفرد على الثقافة الدينية، من خلال تعلم الفرد للمعرفة والمهارات والشعائر الخاصة بدين معين، سواء كان هذا التعلم بشكل رسمى من خلال التعليم الدينى، أو بشكل غير رسمى، ويعتمد الفرد على ما يحوزه من رصيد فى تدوير ومبادلة هذا الرصيد إلى أشكال أخرى من رأس المال، وذلك بهدف تحقيق المنافع المختلفة.

ثانيا: رأس المال الدينى بين المجال العام والمجال الخاص

يرتبط مفهوم رأس المال الدينى بإشكالية مهمة، هى موقع رأس المال الدينى فيما يتصل بالمجال العام، والمجال الخاص، وهذا الأخير يعبر عن العالم الخاص بالفرد داخل حياته الخاصة، وقناعاته ومبادئه الشخصية، أما المجال العام فهو أرض الجدل والنزاع، إنه العالم المفتوح على مجالات الحياة العامة المتنافسة[١٢].

وبناء على التحديد السابق لمفهومى المجال العام، والمجال الخاص، يطرح الباحث التساؤل المرتبط بموقع رأس المال الدينى من هذين المجالين وفى هذا السياق يزخر الفكر السوسيولوجى بالعديد من المقاربات التى اهتمت بتحديد طبيعة العلاقة بين الدين والمجتمع، خاصة فى المجتمع الغربى، فقد ذهب برجر P.Berger ولوكمان Lukman إلى أن التحولات الاجتماعية فى المجتمع الحديث تجعل الدين يتوارى إلى المجال الخاص، خاصة فى ظل سيطرة المؤسسات السياسية والاقتصادية على المجال العام Public Sphere.

ونظر آخرون إلى موضوع الدين فى الحياة المعاصرة من زواية علاقة الدين بالحداثة، فالحداثة تعد مشروعًا عقلانيًا، ومن ثم فإن المجتمع الذى ينتقل إلى مجتمع حديث يخبر عمليات تباين تجعل الدين يتوارى إلى الحيز الخاص، فالمجتمع الحديث لا يعرف ديانة بعينها ولكنه يسمح بالتعددية الدينية، ومن ثم لا يمكن لديانة تقليدية بعينها أن تسيطر على المجال العام، ومن هنا يصبح الدين مسألة خاصة. وهذه العملية تم توصيفها بأنها خصخصة الدين Privatization of Religion [١٣].

ومن خلال محاولة الكشف عن مدى تجسد مثل هذه الأفكار داخل التكوينات الاجتماعية المختلفة، يمكن التوصل إلى فكرة محورية ألا وهى أن تلك الصورة التى ترسمها هذه الأفكار السابقة لم تصل إلى حالتها المثالية فى أى من دول الأرض، فالحضارة الغربية نفسها تأسست على فكرة دينية، ويمكن فى هذا السياق الإشارة إلى البروتستانية كأحد التفسيرات الدينية التى ارتبطت ارتباطًا كبيرًا بالمشروع الرأسمالى الغربى، وبالمشروع الحداثى الغربى، ويمكن الإشارة أيضًا إلى بعض الأحزاب السياسية فى أوربا والتى تصبغ نفسها بالصبغة الدينية، كالحزب الاشتراكى المسيحى فى ألمانيا، بل وأكثر من ذلك إشارة على ليلة إلى أن اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية فى السنوات الأخيرة نحو العالم العربى والإسلامى فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ يستند إلى مرجعية دينية [١٤].

وبالنسبة للعالم العربى، فإن الدين أيضًا ظل لصيقًا حاضرًا كموضوع فى حياة الناس، كما ظل حاضرًا فى الميدان العام لا يغادره، بل يحاول أن يسيطر عليه وأن يسيره. ويشير "أحمد زايد" إلى أن هناك عدة عوامل أسهمت فى ذلك منها [١٥] :

١- أن الإسلام كدين سماوى لا يفرق بين الميدان العام والميدان الخاص فالإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا، وينظر إلى العقيدة الدينية على أنها الإطار المنظم لحركة الحياة وأهدافها.

٢- أن الاجتهادات والتأويلات المعاصرة للدين لم تستطع أن تجد وسيلة للفصل بين حقوق العقيدة وحقوق السياسة، بل يمكن القول أن العكس هو الذى حدث، فقد اتجهت هذه الاجتهادات والتأويلات نحو السيطرة على المجال السياسى بدلا من الابتعاد عنه.

٣- وإذا كانت النقطة السابقة تدل على عدم قدرة الدولة المدنية على تحقيق نقاء مدنى خالص، أو عدم قدرتها على أن تجد وسيلة لتحييد العقل الدينى، فإن هذا الوضع الدينى- ضمن ظروف إقليمية وعالمية- جعل الحقل الدينى يتسع ويتشعب[١٦].

المراجع

١- Natalia Dinello, Forms of Capital: The Case of Russien Bankers, International Sociology, Vol. 13, No. 3, Sep. 1998, p.293.

٢- George Ritzer, Encyclopedia of Social Theory, Vol. 1, Sage Publications, London, 2005, p.167.

٣- على ليلة، النظام العربى المعاصر. متغيرات الإصلاح وحدوده، القاهرة، دار الوافى للنشر، ٢٠٠٦، ص ٤١.

٤- المرجع السابق، ص٤٢.

٥- Vincent Jeffries, Social Stratification, Allyn and Bacon, London,1980,p.101.

٦- على ليلة، مرجع سابق، ص ٤٢.

٧- Roger Fink, Kevin D. Dougherty, The Effects of Professional Training : The Social and Religious Capital Acquired in Seminaries, Journal for the Scientific Study of Religion, Vol,.14, No.1, 2002, p.106.

٨- Bradford Venter, Spiritual Capital: Theorizing Religion With Bourdieu Against Bourdieu, Sociological Theory, Vol. 21, No. 2, Jun. 2003, p.158.

٩- Ibid, p. 166.

١٠- انظر فى ذلك:

- على ليلة، رأس المال الدينى والقيمة المضافة للفعل الإنسانى، مجلة الديمقراطية، العدد ٢٦، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٧، ص ص ٤٢-٤٣.

-Braford Verter, Op.Cit., p. 167.

١١- William A. Mirola, Marian College, Review of "Religion as Social Capital : Producing The Common Good,"Colwin Eed", Sociology of Religion, Vol. 67, No.3, 2006, p.341.

١٢- خالد كاظم أبو دوح، تحولات المجال العام وعلاقتها بتبدلات رأس المال الدينى فى صعيد مصر، بحث مقدم إلى المؤتمر السنوى الحادى والعشرين للبحوث السياسية، تحولات المجال العام فى مصر.. تنامى الصراع ومستقبل التوافق الاجتماعى، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، القاهرة، ١٢-١٣ ديسمبر ٢٠٠٧ ، ص ٨.

١٣- أحمد زايد، صور من الخطاب الدينى المعاصر، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٨٦.

١٤- على ليلة، النظام العربى المعاصر، مرجع سابق، ص ٥٧.

١٥- أحمد زايد، مرجع سابق، ص ص ١٨٨- ١٨٩.

١٦- ذهب بوردى وفى هذا السياق إلى أنه فى أى تكوين اجتماعى، كلما كانت البنية الموضوعية أكثر ثباتا وأكثر قدرة على إعادة إنتاج نفسها وفقا لشروط الأفراد، كلما أصبح امتداد مجال الدين أعظم.

- انظر فى ذلك:

-Bradford Verter, Op.Cit, p.154.